# الفصل الاول

# عزيز علي المصري
# وحركة القومية العربية

بقلم د · مجيد خدوري **

**اشارة**

---

(●) عزيز علي المصري ، هو بالأصل من القفقاس ، وانتقل اجداده الى البصرة حيث سكنوا فيها . ومن البصرة انتقل جده الى مصر حيث ولد عزيز علي ( المترجمان ) .

(●) الدكتور مجيد خدوري هو احد الكتاب الذين اهتموا بالقضايا القانونية والسياسية المتعلقة بالشرق الاوسط . وهو مدير لمركز دراسات الشرق الاوسط في مدرسة جون هوبكنز ، للدراسات الدولية المتقدمة . وهو مؤلف الحرب والسلام في قانون الاسلام ، والعراق المستقل ، والتشريع الاسلامي ، وليبيا الحديثة . كما كتب اعمالا اخرى . ( المترجمان ) .

بالنسبة لعدد كبير من القوميين العرب ، يعتبر عزيز علي المصري «الأب» لحركة القومية العربية الحديثة ، والقائد الثوري الرائع (Par Excellence) الذي جاهد من اجل القضية العربية ضد التسلط التركي[1] .

ان هذه السمعة قد اتته ـ جزئيا ـ من مشاركته في اقامة الجمعيات العربية السرية قبل الحرب العالمية الاولى ومحاكمته وابعاده عن تركيا في عام ١٩١٤ ، وجزئيا من مشاركته في المرحلة الاولى من الثورة العربية لعام ١٩١٦ .

ان المخاطر التي تعرض لها ، وخصوصا اعتقاله ونفيه من اسطنبول قد خلقت حالة من الانفعال في البلاد العربية ، ودفعت تي ، اي ، لورنس الى القول بأن عزيز علي المصري كان نموذجا للضباط العرب[2]

غير ان تركه المفاجيء للحجاز ، بعد ثلاثة أشهر على بداية الثورة العربية وفي ظروف لاتزال غامضة ، يلقي شكا حول ما اذا كان هو في الحق مجاهد من اجل تطوير حركة القومية العربية .

ان السجلات المعاصرة توفر لنا بالتفصيل ، واحيانا «بتعارض ، معلومات عن مغامراته وكلها تقريبا» تربطه بالقضية العربية من خلال الوسائل الثورية ، ولكنها تفشل ان توضح لماذا ترك عزيز علي الحجاز قبل ان ينهي مهمته ، وليس هناك من مصدر بريطاني مطبوع لحد الان يلقي ضوء على الموضوع .

---

(١) انظر على سبيل المثال جورج انطونيوس ( يقظة العرب ) لندن ١٩٣٨ ص‌ص ١١٠ ، ١١٨ ، ١٢٠ . كذلك اسعد داغر ، ثورات العرب القاهرة ١٩١٦ ص‌ص ١٠٣ ـ ١٠٨ . كذلك اسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية القاهرة ١٩٥٩ ، ص‌ص ٣٦ ـ ٣٩ و ص‌ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) تي ، اي ، لورنس ، اعمدة الحكمة السبعة لندن ١٩٣٨ ، ص ٥٩ .

هناك اشارات قليلة تشير الى عدم الاتفاق مع الشـريف حسين ، يمكن ان توجد في بعض السـجلات ، ولكـن الاسباب المعطاة تتراوح بين كـونها قضايا شخصية بحتة ، الى قضايا تتعلق بالسياسة .

ان التصريحات المتعارضة حول دور عزيز علي المصري في حركة القومية العربية قد شجعتني الى ان ادرس المصادر المعاصرة بشكل نقدي ، وان اقارنها مع عزيز علي المصري نفسه ومع آخرين كانوا قد عرفوه[٣] .

ان هـذه المقالة ، وهي حصيلـة بحث مستفيض عن حياة عـزيز علي ، تسـتهدف دراسة دوره في حركة القوميـة العربية ، وتستكشف شـخصيته واخلاقـه .

ان الكتاب العرب الـذين ينسبون لعزيز علي بطولـة حركة القوميـة العربية ، يبحثون ارتباطاته بها منذ فترة اول جمعية سرية «القحطانية» ، والتي كانت قد انشئت في اسطنبول حوالي ١٩٠٩ والتي شارك عزيز علي نشاطاتهـا كما ربطه بعضهم مع سليم الجزائري ـ حفيد احد المنفيين الجزائريين الـذي صاحب عبدالقادر الجزائري الى دمشق بأعتباره المـؤسس لتلك الجمعية[٤] ، على الرغم من ان آخرين يغفلون ذكر اسمه بين اعضائها[٥] .

انه من الصعوبـة بمكان معرفة الاعضاء الكاملين للجمعيات العربيـة السرية ، لان معظم الاعضاء حاولوا اخفاء شخصياتهم ، ولكن اسم عزيز علي يظهر في قائمة اعضاء القحطانية لسجلات جمال باشا في المحكمة العسكرية في عالية ، والتي انعقدت في عام ١٩١٦ لتحاكم الزعماء العرب الذين شـاركوا في

---

(٣) لقد استجوبت عزيز علي في القاهرة بتاريخ ١٣ ـ ١٤ نيسان ١٩٥٨ .

(٤) انطونيوس ، المصدر السابق ص‌ص ١١٠ ـ ١١٩ .

(٥) مصطفى الشهابي ، محاضرات عن القضية العربيـة ، القاهـرة ١٩٥٩ ص‌ص ٦٩ ـ ٧٠ . كذلك امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ١٩٣٤ . ج ١ ص‌ص ١٠ ـ ١١ .

فعاليات مناهضة للحكومة في سوريا ولبنان(٦) .

ولم يعلن اعضاء الجمعية القحطانية في الظاهر ، عن فكرة انفصال العرب عن الوحدة العثمانية على الرغم من ان البعض منهم قد اشار الى انه يجب ان يكون للعرب كيان خاص منفصل داخل اطار البناء العثماني العام .

انه من الصعوبة بمكان معرفة ماهية مناهج المنظمات العربية في مراحلها الاولى ، بالدقة ، لان الافكار القومية العربية لم تكن قد اتخذت شكلا «ثابتا» بعد . ويبدو ان الجمعيات العربية الاولى قد أوجدت بالاحرى ، كرد فعل لفشل الاتراك في ان يعاملوا الزعماء العرب معاملة الاعضاء المتساوين في منظماتهم الخاصة ، اكثر مما كانت منهاجا «محددا» للعمل .

اشار بعض الكتاب ، على اية حال ، الى ان الجمعية القحطانية كانت لها «خطة صلبة» مع افكار محددة ، تحديدا «جيدا» سندها . ان المنهاج الذي استخلص من قبل انطونيوس هو كما يلي : تكون الاقاليم العربية مملكة واحدة ببرلمانها الخاص وحكوماتها المحلية ولغتها العربية التي تستعمل في مؤسساتها وان تكون المملكة جزء من امبراطورية عربية تركية مشابهة في بنائها للامبراطورية النمساوية ـ الهنكارية ، وسيحمل السلطان العثماني في اسطنبول ، اضافة الى تاجه التركي ، تاج المملكة العربية كما يفعل امبراطور هبسبرك في فينا حيث يحمل تاج هنكارية(٧) .

---

(٦) ايضاحات : سجلات المحكمة العسكرية التي انعقدت من قبل الحكومة العسكرية في سوريا ( عالية ١٣٣٤ و ١٩١٦ ) ص ١٦ . ايضا احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية بغداد ١٩٣١ ، ص ص ٣ ـ ٣٥ . للاطلاع على تصريح قدمه عزيز علي الى سليم الجزائري معترضا ضد قيام اكثر من جمعية عربية واحدة .

(٧) انطونيوس ص ١١٠ ، حسن صعب ، العرب الفيدراليون في الامبراطورية العثمانية ، امستردام ١٩٥٨ ، ص ٢٣٤ . ويعزو الاخير الافكار الفيدرالية الى جمعية القحطانية والى عزيز علي بالذات . ويذهب للقول الى ان تلك الافكار قد اوجدت الاسس لمنهاج جمعية العهد التي نظمها عزيز علي كجمعية منفصلة عام ١٩١٢ .

وعلى كل حال ، فأن انطونيوس يغفل في اعطاء مصدر معلوماته ، ولاتعطى المصادر المعاصرة فكرة دقيقة عن ماهية خطـة الجمعية القحطانية ، بأكثر من دعوتها لحماية الحقوق العربية وتطوير الفعاليات الاجتماعية والثقافية بين العرب في اسـطنبول •

ان الافكار العربية الفدرالية المستقاة من المثل النمساوي ــ الهنكاري لم تصبح في الحقيقة موضع نقاش في الصحافة والدوائر السياسية حتى عام ١٩١٢ حتى اصبح الزعماء العرب اكثر وضوحا «عند النظر الى الطريقة التي يعرفون بموجبها علاقتهم بالسلطنة العثمانية[٨] • وبما ان جمعية القحطانية قد مثلت ، بالضرورة ، نفس الاهداف التي استهدفها نادي المنتدى الادبي ، وهـو تنظيم عربي ، اعترف به رسميا من قبل الحكومة العثمانية ، فقـد اصبحت الجمعية القحطانية غير فعالة خلال سنة واحدة ، وانضم معظم اعضائها الى نادي المنتدى الادبي •

وبعد عامين ، اظهر عزيز علي ، مثله الضباط العرب الاخرين ، مساوىء معينة في الحكومة العثمانية ، ولكنه لم يقم على ما يظهر ، بأية فعاليات ضد الحكومـــة •

وقبل فترة وجيزة من ذهابه لليمن مع الحملة العثمانية ، وفي حديثه مـع جمال باشا ، استنكر عزيز علي سياسة تركيا الفتاة تجاه العرب ، وحذره مـن نتائجها السيئة • ولكن جمال باشا الذي كان يكن تقديرا «خاصا» لقابليـة عزيز علي العسكرية ، لم يشأ ان يلفت نظره الى الآثار السيئة التي سـتتركها انتقاداته على الوحـدة العثمانية[٩] • ويبدو ان جمال باشا لم يسمع المزيـد حول الموضوع ، في هذه المرحلة ، ولهذا وبناء على طلبه فقد التحق عزيز علي

---

(٨) انظر توفيق علي برو ، العرب والاتراك في العهـد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ــ ١٩١٤ . القاهرة ١٩٦٠ ص ص ٣١٩ ــ ٣٢٢ .

(٩) جمال باشا : ذكريات رجل دولة ، لندن ١٩٢٢ ص ٦١ ، ٦٢ .

بأركان عزت باشا في الحملة على اليمن عام ١٩١١ • فلوقت طويـل ، قاومت اليمن السياسة العثمانية القائمة على المركزية ، وقد اصر امامها على الاستقلال الداخلي • وبعد مجيء جماعة الفتاة الى السلطة ، قامت على اية حال ، محاولات لجلب الامام الى حظيرة النظام الجديد • الا ان هذه المحاولات فشلت ، وكان هدف حملة عزت باشا على اليمن هو اجبار الامام على الخضوع ، ولكنه لم يكن من السهل التقدم نحو صنعاء وفرض الشروط العثمانية على الامام وعلى الرغم من ان عزت باشا حقق نجاحات اولية في حملته ، فقد اثبتت المباحثات التي شارك فيها عزيز علي وسليم الجزائري بدور فعال ، انها اكثر اثرا في دفع الامام الى التعقل ، بدلا من القتال الفعلي •

وقد ارتفعت سمعة عزيز علي في الاقطار العربية ، ليس فقط لانه قـد انهى الخلاف الطويل نهاية ناجحة بالتوقيع على اتفاقية التاسع من تشرين الاول عام ١٩١١ ، بل وايضا «لان الاتفاقيـة بين عزت باشا وامـام اليمن اعترفت بأستقلال الامام الداخلي»[١٠] •

وعلى اية حال ، فلم يكد عزيز علي يكمل بعثه في اليمن حتى شنت ايطاليا حملة على ليبيا ، واصبحت خدماته مهمة في قطر عربي آخر • فقد صدر اليـه الامر ان يتقدم ويذهب الى شـمال افريقيـا ••

وقام عزيز علي بدور في الدفاع عن برقة في ليبيا (Cyrenaic) بعـد ان انزل الايطاليون قواتهم في دارنه في ايلول ١٩١١ ، واظهر قابلية واضحـة في انزال خسائر كبيرة في العدو • وحينما تركت القوات العثمانية بقيادة انـور باشا ، القائد العام ، في برقة ، وعادت الى تركيا ، سلم انور باشا قيادة القـوات

---

(١٠) في دراسة معاصرة لحملة عزت باشا ، أنظر عبدالرأس بن يحيى الوازعي ، تاريخ اليمن ، القاهـرة ١٩٤٧ ص‌ص ٣١٦ ــ ٣٢٢ . وللاطلاع على نص الاتفاقية انظر نفس المصدر ص‌ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦ . انظـر ايضا توفيـق علي برو ، المصدر السابق ص‌ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

المتبقية الى عزيز علي ، معترفا بشجاعته وقابلياته التنظيميـة على الرغم من ان العلاقات الشخصية الباردة بين الرجلين اصبحت ملحوظة .

وقد بقي عزيز علي في قيادة الجيش العثماني الى ان عقدت معاهـدة صلح بين ايطاليا والدولة العثمانية في تشرين الاول عام ١٩١٢ . لقد رجته القوات السنوسية المحلية ، التي واصلت الكفاح ضد الايطاليين ان يستمر في تقديم العون لهم ، ولكنه ولاسباب ستتضح فيما بعد ، فضل العودة الى اسطنبول .

ان محاولات عزيز علي العسكرية في الدفاع عن قطر عربي ضد الغـزو الاجنبي قد زادت الى مدى ابعد ، من سمعته ، واوحت الى الشاعر الكبير احمد شوقي ( توفي ١٩٣٢ ) بتمجيده في قصيدة رنانة بليغة بأعتباره «بطل برقة» .

عاد عزيز علي الى اسطنبول في وقت ازداد فيه التوتر بين الاتراك والعرب ، ووصل نقطة عالية من الاثارة ، دفعت عزيز علي الى تشكيل منظمة سرية عرفت بـ ( العهد ) اقتصرت على ضباط الجيش ، وقد اعتبرت المصادر العربية هـذه الجمعية اكثر الوسائل فعالية في نشر الافكار العربية الانفصالية ، شأنها شأن جمعية الفتـاة ، وفي جمعية سرية اخـرى ، نشـرت مبادئهـا بين المدنيـين . ويشير الكتاب العرب الى انه كانت هناك صلة بين الجمعيتين ، مما ساعد على تنسيق نشاطاتهما في الاراضي العربية[11]

ومنذ الوقت الذي عاد فيه عزيز علي الى اسطنبول عائدا «من برقة في عام ١٩١٢ ، وحتى ابعاده الى مصر ١٩١٤ ، صورته المصادر العربية بأعتباره اشهر ضابط عربي في اسطنبول ، لديه الشجاعة لان يتحدى الحكومة العثمانية في الدفاع عن حقوق العرب .

---

(١١) مصطفى الشهـابي ص‌ص ٧٨ ــ ٨٠ . داغـر ، مذكراتي ص‌ص ٣٥ ــ ٣٦ ، امين سعيـد ج ١ ص‌ص ٤٦ ــ ٤٨ ، انطونيوس ص‌ص ١١٩ ــ ١٢٠ ، واحمد عزت دروزه ، حول الحركة العربية صيدا ١٩٥٠ ص‌ص ٣٢ ــ ٣٣ ، وانظر ايضا ايضاحات ، التي تنسب الى الجمعية اهـدافا ثورية ، ص‌ص ١٨ ــ ٢٠ .

وصلت شعبية عزيز علي قمتها عندما اصبح ضحية انور باشا في اجراءاته المستعجلة للقضاء عليه ، وهي خطوة اعتبرها الرأي العام العربي المعاصر انها استهدفت ابعاد كل الضباط العرب من الجيش العثماني • وحينما تم اعتقال عزيز علي فعليا « ، قدم جميع العرب الموجودين في اسطنبول احتجاجا » ضد الزعماء الاتراك •

ان قصة اعتقال عزيز علي يمكن تلخيصها كما يلي :

في التاسع من شهر شباط ١٩١٤ ، وحينما كان عزيز علي يهم بمغادرة فندق توكاتلين بعد الغذاء تبعه ثلاثة من افراد الشرطة السرية ، واقتادوه الى مركز الشرطة المركزي في اسطنبول •

ان انباء الاعتقال قد احدثت هياجا « كبيرا » بين المجموعة العربية والى احتجاجات ضد الحكومة قدمت الى الهيئات الدبلوماسية في اسطنبول ، وتبع ذلك قيام ارهاب ومظاهرات في الشوارع •

ان التهمة الموجهة ضد عزيز علي ، والتي اعلنت رسميا ، لم تقم على اساس فعالياته في الجمعيات السرية ، بل لانه فشل في اعطاء تفاصيل أنفاق ٢٠ــ٣٠ الف دينار تسلمها من انور باشا ، كأموال حكومية حينما ترك برقة • لقد اتهم عزيز علي بأبتزاز ذلك المبلغ ، ولكن المصادر العربية تشير الى ان مشاعر التعاطف التي اظهرها عزيز علي تجاه العرب كانت السبب الحقيقي ، وانه خلال المحاكمة التي جرت بشكل سري ، اتهم بنشاطات معادية للحكومة ، كمطالبته بتحقيق الاستقلال العربي ، وبأقامة مملكة عربية في شمال افريقيا (١٢)

لقد كان توقيف عزيز علي ، بالنسبة لكثير من العرب دليلا ، ابعد على ان للقادة الاتراك غايات خبيثة بعيدة المدى ، تجاه رعاياهم ، بدلا ، من

---

(١٢) اسعد داغر ، ثورات العرب ص‌ص ١٠٣ ــ ١٠٨ ، انطونيوس ص‌ص ١٢٠ •

الاعتراف بخدماتهم للدولة . ولهذا فقد نهض العرب في اسطنبول ، جميعهم ضد اجراء الحكومة ، ورجوا من قادتهم مثل عبدالحميد الزهراوي الـذي كان قد عين عضوا في مجلس الشيوخ العمل على اطلاق سراحه . وتصف الكتابات العربية المعاصرة مدى السخط الذي ابداه العرب ، كما ابدته ايضا المجموعات غير التركية في اسطنبول ازاء التوقيف غير العادل لعزيز علي وقد مارست هذه المجموعات الضغط على الحكومة العثمانية من اجل اطلاق سراحه . لقد تراوح الضغط بين الانتقاد في الصحف الى الاحتجاجات الرسمية التي قدمت الى البعثات الدبلوماسية(١٣) .

وقد ادى هذا الضغط الى تخفيف عقوبة الاعدام في الخامس عشر من نيسان ١٩١٤ ، الى عقوبة السجن لمدة خمس عشرة سنة مع الاشغال الشاقة . ونجحت الضغوط فيما بعد ، على الحكومة العثمانية ، في اطلاق سراح عزيز علي في ٢١ نيسان ، وفي اليوم التالي ابحر متجها نحو مصر ، حيث استقبل بحفاوة بالغة عند وصوله .

ان دراسة نقدية لنشاطات عزيز علي ستعطي ، على وجه الاحتمال ، صورة مختلفة عن تلك التي رسمت من قبل معاصريه ان على مثل هـذه الدراسة ان تأخذ بنظر الاعتبار خلفيته العائلية ، وتربيته في مصر قبل ذهابه الى تركيا ، لان مثل هذه الخلفية كان لها تأثير كبير على اعماله المستقبلية في اسطنبول .

ان اسلاف عزيز علي لم يكونوا عربا في الاصل ، ولم يكونوا على وجه الدقة مواطنين مصريين ، لان كلا من ابيه وجده كانا معروفين بانهما

---

(١٣) انظر : جي. ن. كوش ، وهارولد تمبرلي ، الوثائق البريطانية عن اصول الحرب ١٨٩٨ ـ ١٩١٤ ( لندن ، دائرة الوثائق البريطانية الملكية ، ١٩٣٣ جـ ١٠ ، الفصل الثاني ، ص ص ٨٣٤ ـ ٨٣٥ .

شراكسة على الرغم من ان زكريا قد ولد في مصر (١٤) .

ان اسم شاهيي ، وهو اسم العائلة الشركسية كان معروفا بصورة جيدة في مصر ، قبل مولد عزيز علي ، غير ان عزيز علي ، بعد ان استقر في اسطنبول استعمل لقب «المصري» او «القاهري» من اجل ان يميز نفسه عن بقية ضباط الجيش الناطقين بالعربية والعاملين في خدمة الحكومة العثمانية . وهكذا فقد كان عزيز علي مدركا ، بصورة جيدة ، بأنه لم يكن عربيا ، بالاصل ، على الرغم من انه ولد في مصر ، وان لسانه كان عربيا . ان اصل عزيز علي الشركسي ، وكونه مسلما ، مخلصا ، قد جعلته بصورة متكافئة مخلصا لمصر ، وللخلافة العثمانية ، مادامت مصر لا تزال بصورة رسمية تحت السيادة العثمانية . لقد كان الرأي العام المصري في تلك الفترة الى جانب ارتباط مصر بالامبراطورية العثمانية ، ولهذا فقد كان من الطبيعي للشاب عزيز علي ، بعد وصوله الى اسطنبول ان يشعر انه في بيته في العاصمة قبل ان ينغمر في الصراع مع رفاق مدرسته من الاتراك . ولايقل عن ذلك اهمية تأثير المناخ المصري السياسي في افكار عزيز علي قبل مغادرته الى اسطنبول في عام ١٨٩٨ ، وكانت مصر مختلفة عن بقية الاقطار العربية التي كانت تعاني من الفوضى العثمانية ، اذ كانت تحت السيطرة البريطانية منذ عام ١٨٨٢ ، على الرغم من انها بقيت رسميا ضمن الامبراطورية العثمانية . لقد مارس

---

(١٤) انظر الاهرام القاهرية ٢١ تموز/١٩٥٩ . كان اسم جد عزيز علي سالم عرفات وهو تاجر بصري كان يزاول التجارة سنويا في القفقاس عن طريق البحر الاسود . وان شريكه في هذه المناطق كان قفقاسيا هو حسن بيك الذي اعطى في الاخير لعرفات يد اخته مدخلا اياه بصورة رسمية في نفس الوقت في قبيلته . وقد حدث كل هذا اثناء حكم السلطان محمود الثاني وان الجيل الثالث لهذا الاتحاد نزح الى القسطنطينية ومنذ ذلك الحين وبعد ان استقروا في مصر فقد باعوا عبيدهم ، واصبحوا بهذا الوقت اكثر ميلا للشركسية منهم للعرب ، على انهم كانوا مدركين ومحتفظين بصلاتهم بالبصرة ، انظر : استورز ( المشرقيات ، الاستشراق ) ص١٧٩ .

الناس بعض الحرية ، وعاشوا في رفاه اقتصادي تحت الحكم البريطاني* غير انه في نهاية عهد كرومر (١٨٨٣-١٩٠٧) اصبحت الحركة الوطنية المصرية التي قادها مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) قوية الى درجة كان باستطاعتها معها أن تتحدى الاحتلال البريطاني . لقد حمل مصطفى كامل من فرنسا التي درس فيها ، الافكار الاوربية عن القومية واستهدف تحقيق استقلال مصر . وكخطوة عملية نحو ذلك الهدف النهائي ، فقد تبنى عودة مصر الى السلطنة العثمانية املا ، في ان يكون الارتباط مع العثمانيين سببا ، في تحرير مصر من السيطرة البريطانية .

لقد كان لافكار مصطفى كامل اثاراً بعيدة على مواطنيه وخصوصا ،

---

(*) ان الحرية النسبية ، والرفاه النسبي الذي يتحدث عنه المؤلف ، جاءا اثر الفوضى الكبيرة التي نتجت عن الديون التي ورط بها الخديوي اسماعيل لا تزيد عن (٣) ملايين جنيه مصري ، في حين بلغت القروض اسماعيل لا تزيد عن (٣) ملايين جنيه مصري ، في حين بلغت القروض في نهاية عهده نحوا من (١٠٠) مليون جنيه وبفوائد عالية ، ولجهات متعددة الاطراف .

فلما جاء البريطانيون بعد قضائهم على عرابي ، وحدوا الديون واخضعوا الاقتصاد المصري الذي كان يقوم اساساً على زراعة القطن والاستفادة من عائدات قناة السويس ، الى الاقتصاد البريطاني . فأنتعشت طبقة من الاقطاعين الكبار ممن كان يقوم بزراعة القطن ، كما استفاد التجار الكبار الذين كانوا يقومون بدور الوسطاء . اما اغلبية الشعب العاملة في الريف او في المدن فلم تتحسن حالتها الا قليلا عما كانت عليه ايام الخديوي اسماعيل .

وبالنسبة للحرية النسبية التي شهدتها مصر آبان فترة الاحتلال فأساسها ان بريطانيا كانت تريد فصل مصر عن الدولة العثمانية ، وهي لهذا السبب شجعت النزعات الانفصالية وكانت مصر ملجأ للاحرار الذين يناوئون السلطنة العثمانية : فقد قامت صحافة نشطة ، وقد استفادت بريطانيا من ذلك ، لان هؤلاء اللاجئين الاحرار كانوا يوجهون انتقاداتهم للدولة العثمانية من مقرهم في مصر : فاذا ما تجرأ البعض وانتقد البريطانين ابعدوه عن مصر . المترجمان .

بأثارته المشاعر العاطفية والدينية للشعب المصري ، ولكونه متمتعاً بجو من حرية التعبير عن الرأي والتأييدالمبدائي للخديو عباس الثانيالذي كان معارضا لحكم كرومر ، فان مصطفى كامل قد دعا الىانهاء الاحتلال البريطاني ،واعادة ارتباط مصر بالخلافة العثمانية فلاقت دعوته استجابة حسنة بين المصريين .

لقد وصلت الافكار المعارضة للاحتلال البريطاني الى درجة عالية عندما شارف عهد كرومر علىالانتهاء قبيل وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ .

وفي هذا الجو نشأ عزيز علي وتلقى تعليمه الاول قبل ذهابه الى الخارج لمتابعة الدراسة (١٥) .

وفي البداية ، وكما اوضح عزيز علي القصة بنفسه ، فقد كان يرغب بالدراسة في فرنسا ، ليصبح ضابطا عسكريا من اجل طرد البريطانيين من مصر (١٦) .

لقد اعتبرت فرنسا انذاك في مصر ، انها مهد الحرية ، وهي القطر الذي استنجد به مصطفى كامل من اجل الدعم ضد الاحتلال البريطاني ، ولكن سمعة فرنسا قد هبطت عندما استمر الاحتلال البريطاني بغير معارضة ، وفي نهاية المطاف ، وقبل اربعة اعوام من موت مصطفى كامل اتفقت فرنسا مع انجلترا من عام ١٩٠٤ ، واعترفت بالاحتلال البريطاني لمصر ، مقابل اطلاق يد فرنسا حرة في مراكش .

ولهذا فقد كان من الطبيعي لهذه الاسباب ان فضل عزيز على الدراسة في تركيا بدلا من فرنسا ، واضافة الى ذلك فقد علم ان الخبراء العسكريين الالمان

---

(١٥) من المحتمل أن يكون عزيز علي قد ولد في عام ١٨٧٩ أو ١٨٨٠ ، ذلك ان اللواء ابراهيم الراوي الذي كان قد عرف عزيز علي في اسطنبول قبل الحرب العالمية الاولى،وخدم فيما بعد كمعاون له في الحجاز عام١٩١٦،قد اخبر المؤلف انه عندما تخرج من الكلية العسكرية عام ١٩٠٦ كان عمر عزيز علي اكثر من (٢١) سنة . وفي مقابلة مع مراسل الاهرام في ( ٢١ تموز ١٩٥٩ ص ٣ ) قال عزيز علي ..... انه كان في حوالي سن الخامسة والعشرين عندما اكمل تدريبه .

(١٦) انظر ايضا الاهرام في ٢١ تموز ١٩٥٩ ص٣ .

الذين تمتعوا بسمعة عالية في الامبراطورية العثمانية قد وظفوا للتعليم في الكلية العسكرية العثمانية ، وهو امر اخر حبب اليه الذهاب الى العاصمة العثمانية ٠

وجد عزيز علي نفسه في اسطنبول في مناخ ملائم ، حيث كان في استطاعته ان يعرب عن افكاره بحرية ضد الاحتلال البريطاني ، كما يستطيع ان يعبر عن رغبته في ارتباط مصر بالسلطنة العثمانية ٠

ان موقفة الودى ازاء السلطنة العثمانية قد جعله محبوبا من قبل زملائه العثمانيين واساتذته الالمان خلال دراسته في الكلية العسكرية ٠ وقد ميز عزيز علي نفسه كطالب عسكري قدير ، وتابع دراسته في كلية الاركان متخرجا قبل اربعة اعوام من قيام الثورة التركية لعام ١٩٠٨ ، وحائزا على الامتياز ، وكان تأثيره كبيرا على الجنرال الالماني الذي كان يدرسه في كلية الاركان ، لدرجة ان الجنرال حينما حظى بمقابلة السلطان رشح عزيز علي لمنصب عسكري رفيع ، وكلف عزيز علي ، بعد تخرجه من كلية الاركان بالخدمة في مقدونيا حيث اظهر نجاحا مرموقا في مطاردة العصابات البلغارية(*) وفي محاربته لليونانيين والبلغاريين وعلى الحدود الالبانية ٠

ارتبط عزيز علي بجمعية الاتحاد والترقي السرية خلال خدمته هذه في البلقان والتي كان بعض زملائه في الدراسة اعضاء فيها ، وقد ساهم في نجاحها النهائي ، وحينما تحرك الجيش في عملياته على اسطنبول ، كما يقول جمال باشا ، ضد الحركة الرجعية التي قامت في الحادي والثلاثين من شهر اذار ــ الى ١٣ نيسان ١٩٠٩ ، كان عزيز علي يقود احدى الوحدات العسكرية ، وبعد ان استولت القوات على جسر ( غالطة ) قاتل عزيز علي ضدثكنات (تقوتا)واظهر مهارة كثيرة في اخراج المتمردين منها (١٧) ٠

---

(١٧) انظر جمال باشا ص ٦٠ــ٦١ ٠ انظر ايضا فرانسيس ماكولو ــ سقوط عبدالحميد ، لندن ١٩١١ ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩ ٠

(*) لا نتفق مع رأي المؤلف بتسميته لحركة التحرر الوطني البلغاريه بأسم ( العصابات البلغارية ) والتي ناضلت ضد الاستبداد العثماني والاضطهاد القومي ٠

وبعد ان اعيدت الحياة الدستورية ، قامت فترةقصيرةمن الاخاء تمتعت المجموعات الوطنية المختلفة التي توقعت ان عهدا من الحرية والمساواة سيبرز ، ولكن المسألة ، في الحقيقة ، كانت اكثر تعقيدا ، مما تصوره قادة تركيا الفتاة (C. U. P.) ان هؤلاء لم يكونوا مستعدين للتصدي لحل المشاكل القومية .

ان المتطرفين من هؤلاء القادة ممن تبنى سياسة التتريك كانوا يستثيرون القوميات الاخرى بأجراءاتهم ، ولقد فشل حتى الزعماء الثلاثة الرئيسيون : طلعت ، انور ، جمال ، في الاتفاق على هدف موحد . لان طلعت كان يبدو انه فضل العثمانية ، في حين كان انور متعاطفا ، مع حركة الجامعة الاسلامية ، اما جمال فقد شجع فكرة القومية ، على الرغم من انهم اتفقوا جميعا ، على الحفاظ على الوحدة العثمانية .

ان عدم الاتفاق على سياسة قومية عامة ، ادى الى زيادة الفوضى في الاراء ، مما شجع المجموعات القومية المختلفة ان تنشد تحررها في الانفصال النهائي عن الوحدة العثمانية .

وراى عزيز علي كان عضو ، فعالا ، في جمعية تركيا الفتاة ، ومؤيدا ، امينا ، للوحدة العثمانية ، الخطر العظيم في سياسة التتريك واتباع التجديد . لقد كان عزيز علي على علاقة طيبة مع عدد محدود من زعماء المجموعات القومية ، وحاول ان يتوصل الى تفاهم بينهم وبين جماعة تركيا الفتاة ، لانه وصل الى نتيجة فحواها ان خير وسيلة من مجتمع معقد مثل الامبراطورية العثمانية لحفظ السيادة ليس بأتباع اساليب تستهدف كبح القوميات ، بل بالاعتراف بها ، واعتبار كل منها وحدة مستقلة داخل اطر الكيان العثماني .

ان الايمان بصواب هذه الفكرة ، كما يبدو ، قد دفع عزيز علي الى ان يبشر بها بين اقرانه ، وقد دعا بعضهم الى مناقشتها في اجتماع عقد في

منزلـه[18] .

ان مثل هذه الفكرة المنبعثة من شـخص لم يكن تركياً في الاصل قد اثارت ارتياب منافسيه في جمعية تركيا الفتاة ، واعطت الانطباع انه يعمل من اجل قضية القوميات الناقمة . كما ان زياراته للمنتدى الادبي ، وهو ناد ثقافي عربي ، يعج بالقادة العرب والعثمانيين ، قد اعطى الانطباع انه كان مناصرا لقضية المجموعة العربية التي كان يتكلم لغتها .

انضم عزيز علي في هذا الوقت الى الجمعية القحطانية العربية السرية ، التي تأسست عام ١٩٠٩ من قبل صديقه سليم الجزائري ، ويبدو ان اسـماء اعضائها اصبحت معروفة بالنسبة للحكومة[19] .

ان وجهات نظر عزيز علي حول القضية القومية ، قد ساهمت بدرجـة لاتقل عن علاقته الخالية من المرونة مع قادة جمعيـة تركيا الفتاة ، في فشـل الحكومة في تقدير خدماته الى الدولة[20] .

ولعل ما أضر بعزيز علي اكثر من أي شيء اخر ، هو نزاعه مع انور باشا ان اسس هذا النزاع كانت شخصية كما يبدو ، لان عزيز علي كان مسـتمرا في انتقاد انور حتى في الوقت الذي كان لايزال فيه فعالا ، في دوائر جمعيـة تركيا الفتاة . وحينما كان الاثنان في برقة استهجن عزيز علي كون انور باشا هو رئيسه العسكري الاعلى ، وابدى ملاحظات مستهجنة ضده بين مجموعة من الاتراك والعرب .

وحينما عاد انور الى اسطنبول وزيرا ، للحرب ، استمر عزيز علي

---

(١٨) اسعد داغر ، مذكراتي ص ٣٦ .

(١٩) انطونيوس ، ص ١١١

(٢٠) يرتبط بهذه الحقيقة ، ان جمال باشا لمح بقوله ( . . . حتى هذا الوقت (١٩٠٩) فاني لم أعرف ان هـذا الرجل ( عزيـز علي ) كانت له علاقات عربية ... ) انظر جمال باشا ، مذكرات ص ٦١ .

في مهاجمته ، على الرغم من ان انور قد اصبح رئيسا لدائرته . اما العرب الذين ادعوا أن عزيز علي هو عضو في مجموعتهم فقد اتحدوا في استنكار انور وصحبه مما دفع بعدد من اعضا جمعية تركيا الفتاة الى اتهام عزيز علي بأثارة المشاعر العربية وتبنيه لفكرة الاستقلال العربي . وهكذا ، فعلى الرغم من ان العنصر الشخصي كان العامل الاساس في الصراع بين الضابطين العسكريين ، فان هذا العامل قد استغل بصورة تامة من قبل المنافسين القوميين .

عبر جمال باشا في مذكراته عن الشعور الحقيقي للقادة الاتراك عندما قال (.... حينما اصبح انور باشا في النهاية وزيرا ، للحرب ، كان عزيز علي الى جانبه على وجه الدقة . ولكنه لم يستطع تحمل حقيقة كونه انه كان مزاملا لانور في الكلية العسكرية وقدم عملا «رائعاً» واظهر درجة عالية من الوطنية ، ويبقى مقدما ، بسيطا ، في اركان الحرب ، بينما يصبح منافسه وزيرا للحربية ، وخرج بنتيجة ان التعاون مع الترك لم يحقق المجد ... له . (٢١) .

ان هذه الملاحظة تعكس جانبا ، واحدا ، من اخلاق عزيز علي الحقيقية وتعبر عن موقفه أزاء الحكومة العثمانية . على ان هناك ، على اية حال ، جانبا «آخر للعملة ان امانة عزيز علي قد دفعته الى الاعتقاد انه اذا اريد الاحتفاظ بالوحدة العثمانية ، فان شخصية المجموعات القومية المختلفة يجب ان تنال الاعتراف ، وقد دعى الى هذا المبدأ بأعتباره خير ضمان ضد الميول التي تستهدف تمزيق الامبراطورية . ولما عقد العرب مؤتمرهم الاول في باريس ( حزيران ١٩١٣ ) ، واصدروا عدة قرارات مطالبين بتحويل السلطات الى الاقاليم ، انتقد عزيز علي فكرة عقد مثل هذا المؤتمر في عاصمة دولة اجنبية وانتقد العرب لتقدمهم بمطالبهم في وقت كانت فيه الحكومة العثمانية منشغلة في حرب مع الحكومات البلقانية ، على الرغم من انه كان على اتفاق

---

(٢١) انظر : جمال باشا صفحات ٦٢ـ٦٣

تام مع المبادىء الاساسية التي اصدرها ذلك المؤتمر [٢٢] • واخيرا ، فأن الاعتقاد الثابت بالوحدة العثمانية ، قد دفع عزيز علي الى ان ينضم الى جمعية العهد المؤلفة من ضباط الجيش المختلفي الاصول القومية من اجل ان يحقق الوحدة بين الاتراك والعرب [٢٣] •

ان ازالة الصراع العربي التركي ، الذي أدرج بصورة غامضة في منهاج جمعية العهد كان يقوم في طبيعته على اقامة مشروع فيدرالي شامل يتابع النموذج النمساوي الهنكاري ( اوسكليك Auscleic ) [٢٤] حيث تنال القوميات بموجبه الاستقلال الذاتي •

لقد اخبرني عزيز علي بكل اخلاص ، ان الاعضاء الاصليين في جمعية العهد كانوا من الاتراك والعرب ، ولكنه بعد مغادرته اسطنبول سيطر عليها العرب الذين اصبحت اهدافهم ثورية بشكل واضح اثر فشل العثمانيين في تنفيذ الاتفاقية التي تم التوصل اليها بين العرب والقادة الاتراك اثر مؤتمر باريس لعام ١٩١٣ •

ان التحطم النهائي لعلاقات عزيز علي مع قادة تركية الفتاة ، قد حدث بالطبع ، حين تم توقيفه ومغادرته اسطنبول في شهر نيسان ١٩١٤ والتي سبق ان اشرنا اليها • انهذه الحادثة التي لم يكن عزيز علي ليرغب فيها ، قد وضعته في موقع مختلف في اعين اولئك الذين يعملون من اجل التعاون التركي العربي ، لانها قد اعطت انور باشا عذرا ، لان يستهجن عزيز علي بأعتباره قائدا ، ثوريا عربيا ، عمل على تطوير فكرة الثورة العربية ، على الرغم من انه كان من الواضح جدا ان الصراع كان نتيجة منافسة شخصية وغيرة بين

---

(٢٢) احمد شفيق باشا ، مذكراتي في نصف قرن ( القاهرة ؟ ) ج ٣ ص ٨٥ •

(٢٣) لقد اخبر طه الهاشمي الذي كان سكرتيرا لجمعية العهد ( والذي اصبح فيما بعد رئيسا لاركان الجيش ثم رئيسا للوزراء في العراق ) المؤلف انه اقترح على عزيز علي ان يعلن عنها جمعية العهد مادام الهدف هو ازالة الاختلافات بين العرب والترك •

(٢٤) جمال باشا ، ص٦٠ •

الرجلين ، وقد ادعى الزعماء العرب انهم انقذوا عزيز علي من الموت برجائهم الى البعثات الدبلوماسية الاجنبية من اجل انقاذه ، على الرغم من ان العناصر التركية المعتدلة ، في الحقيقة ، لم تكن مقتنعة ، بأية حال ، بتصرف انور المستهدف الى تحطيم عزيز علي • وكان جمال باشا الذي استشاره اجراء انور الانتقامي ، هو الذي تدخل ليضع نهاية له • وكما اوضح جمال باشا في مذكراته ، فقد لاحظ ان الرأي العام قد ادان انور باشا بقسوة اكثر مما ادان به عزيز علي ، وهو لهذا السبب تحرك لانقاذه على الرغم من ان عزيز علي قد اصبح بالنسبة له ثوريا ، عربيا ، • وكتب جمال الى انور باشا الرسالة التالية : ــ

عزيزي انور •••••••

مع عدم اهمال كل الادلة التي جمعتها المحكمة العسكرية ضد عزيز علي بك ، وحقيقة ان ذلك الحكم قد صدر ضده ، فأنك انت الذي يدينك الرأي العام •

ان اتهامك في هذه الحالة سيسبب لك اذى يزيد الف مرة مما سيعانيه عزيز علي من بقائه بضع سنين في السجن • رجاء ، حاول ان تحصل له على عفو امبراطوري وسوف اتعهد بأنه يترك اسطنبول ولن يعود اليها مرة اخرى

واضاف جمال ، انه في اليوم التالي خابرني انور باشا ليقول ان جلالته قد عفا عن عزيز بك [٢٦] •

وعندما زار اخو عزيز علي ، جمال باشا ليشكره على ذلك ، نصحه ان يترك عزيز علي البلاد حالا ، ويتوجه الى مصر ، وان يبتعد عن السياسة التركية •

---

(٢٥) جمال باشا ، ص ٦٤ •

(٢٦) يقول ت • ي لورنس في كتابه ( اعمدة الحكمة السبعة ص٧٥ ) ان عزيز علي قد انقذ من قبل ، جريدة التايمس واللورد ( كتشنز ) أنظر ايضا ستورز ، مشرقيات ، ص ١٧٩ •

وانتهى جمال الى القول ، لقد سمعت اخيرا ، انه على الرغم من ان عزيز علي بك قد اعطاني كلمة الشرف في وقته ، فأنه قد وضع نفسه في خدمة الشريف حسين خلال الحرب العالمية ، حينما ــ نهض الاخير ضد الخلافة .... واليوم فانني أنا الذي لا استطيع ان اسامحه (٢٧) .

اعطى طرد عزيز علي من العاصمة العثمانية ، الانطباع الى العالم الخارجي بأن فعالياته الثورية كانت الاسباب الرئيسية للخلاف الذي تطور بينه وبين قادة تركيا الفتاة ، على الرغم من ان صراعه مع انور باشا كان معروفا «بصورة واضحة » (٢٨) .

وهكذا ، فحين اندلعت الحرب العالمية الاولى ، اتصلت عناصر معادية الى الدولة العثمانية بعزيز علي ، داعية اياه الى ان يشارك في الفعاليات الثورية ضد الحكومة . ولكنه ــ كما يبدو ــ قد فضل البقاء في القاهرة في خمول نسبي ، على الرغم من انه قد يكون قد تفوه او كتب تعليقات يستهجن فيها انور باشا (٢٩) .

---

(٢٧) جمال باشا ، ص٦٤ .

(٢٨) كتب السير . ل . مالت ، السفير البريطاني في تركيا الى السير ادورغراى في ٢٤ شباط ١٩١٤ « ....... لقد ادعى أصدقاء عزيز علي ان كره انور باشا كان له دور كبير في توقيفه ، ولكنه من الواضح مما تلقيته من مصادر اخرى بأن القضية في حقيقتها مسألة سياسية . فليس هناك من شك ان عزيز علي بك كان احد العناصر الرائدة بين مجموعة من الشبان العرب ضباطا ومدنيين ، ممن لم يقتنع بسياسة الحكومة التركية الحاضرة . انه من الصعوبة بمكان الحكم على اهمية هذه الجماعة ، ولكنه قد توفر الى علمي ان بعضا منهم على الاقل ، يرتبطون بجماعة تتميز قليلا او كثيرا بعلاقاتها لتنظيم حركة قد تستهدف فصل المنطقة الكاملة من الموصل الى الخليج العربي عن السيطرة التركية . كوش وتمبرلي المصدر السابق جـ ١ ، القسم الثاني ، ص ٨٣٣ .

(٢٩) ايضاحات ص ٢٠ـ٢٤ .

لقد اتهمته المحكمة العسكرية التي اقامها جمال باشا في سوريا في عام ١٩١٦ ، على اية حال ، بتنظيمه جمعية ثورية في القاهرة ، ونشره دعاية ضد الحكومة العثمانية ..

ان استمرار ايمان عزيز علي بالوحدة العثمانية قد ظهر في مناسبة اخرى حينما ثار الشريف حسين في مكة عام ١٩١٦ . فقد كان هناك حماس متسع بين القوميين العرب الذين املوا ان هذه الثورة ربما تحقق في النهاية الطموحات القومية العربية ، وابرزوا عواطفهم بوضوح عنها . ان بعض الضباط العرب ، الذين اما ان يكونوا قد هربوا من الجيش العثماني ، او كانوا سجناء حرب لدى البريطانيين والتحقوا بالجيش الشريفي . وكان متوقعا ، في الدوائر العربية والبريطانية ان يستغل عزيز علي هذه الفرصة ، مادام يتمتع بسمعة القائدالثوري اللامع . وقد دعى بالفعل للمشاركة في الثورة من اجل تحقيق الاستقلال العربي غير ان عزيز علي ، على اية حال ، تلكأ في الاشتراك في الثورة ، لانه كما اوضح لي شخصيا انه ما كان يعرف بصورة عامة فيما اذا كان الشريف حسين قد اشعل الثورة ليمنع احتلال الحجاز من قبل قوة اجنبية ، او لكي يدافع عن سلطة السلطان من اجل حصوله على الاستقلال .

اتصلت السلطات البريطانية في القاهرة بعزيز علي لكي يقدم خدماته الى الشريف حسين ، ولكنه فضل اولا ، ان يستكشف حالة الشريف من خلال نوري السعيد وهو عضو في جمعية العهد كان قد اسر من قبل البريطانيين وارسل الى القاهرة كتب نوري السعيد بعد وصوله الى الحجاز الى عزيز علي حاثا اياه ان يلتحق بالقوات الشريفية ولكن دون ان يوضح له اهداف الثورة . وهكذا فقد ذهب عزيز علي الى الحجاز وقابل الشريف حسين ليستكشف موقف الثورة ، ويتعرف على الاسباب التي أدت الى انفصاله عن الحكومة العثمانية . واوضح عزيزعلي، وجهات نظره حول العلاقات التركية العربية بطرحه الى الشريف وقال ..... انه لايفضل الانفصال الكامل عن الخلافة العثمانية ..... كما قال عزيز ايضا

انه نصح الشريف ان يكون الهدف المباشر للثورة هو منع انتشار العداوة بين بريطانيا وتركيا الى الحجاز ، والحصول في النهاية على الاستقلال العربي الذاتي ضمن الوحدة العثمانية (٣٠) • وحين وجد الشريف حسين ان هذا الضابط الشاب معتد برأيه الى حد كبير لم يعد متلهفا لان يستخدمه في منصب عسكري قيادي عال ، ولكن السلطات البريطانية ، التي لاحظت حاجة الشريف الى ضباط عسكريين مدربين ، نصحته ان يستخدم عزيز علي ، كما يستخدم ضباطا ، عسكريين عربا آخرين بسبب تدريبهم المناسب في الجيش العثماني المنظم • واستخدم الشريف حسين الضباط العرب شريطة ان يخدموا تحت امرة ابنائه • وهكذا تم الاتفاق على اعطاء القيادة الاسمية للجيش النظامي الى الشريف علي بن الملك حسين الاكبر ، والمرابط في ( لابغ ) وهي ميناء بحري استعمل من قبل البريطانيين لتجهيز السلاح والمعدات الى القوات الشريفية ، وان تعطى الادارة الفعلية للعمليات للضباط العرب • وقبل عزيز علي ، الذي رشح من قبل المستشارين البريطانيين ، على مضض ان يصبح رئيسا ، للاركان في ايلول عام ١٩٦ (٣١) •

وما كاد عزيز علي يبدأ بممارسة عمله بكفاءة ، حتى تطور الخلاف بينه وبين الشريف حسين • كتب انطونيوس ، ان الشريف حسين كان سيدا ، صعبا ، بالنسبة لعزيز علي ، المحب الى ابعد الحدود للكفاءة ، وقد تولد الخلاف نتيجة لهذا(٣٢) • وكان هذا الخلاف ، كما اعتقد السبب في مغادرة عزيز علي للحجاز بعد ثلاثة اشهر من وصوله •

---

(٣٠) مقابلة المؤلف مع عزيز علي ، انظر ايضا تصريحاً بهذا الخصوص لدى فائز النصيب ، مذكراتي عن الثورة العربية ( دمشق ١٩٥٦ ) ص ٢٢٨ .

(٣١) تي ، أي لورنس ، اعمدة الحكمة السبعة ص ٧٤ـ٧٥ • انظر ايضا ستورن شرقيات ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٣٢) انطونيوس ، ص ٢١٢ •

ويبدو هذا السبب ، على الرغم من اهميته ساذجا ، عند محاولة ايضاح اسباب ابتعاد عزيز علي عن ثورة غرضها تحقيق الهدف القومي العربي • فلو ان هدف الثورة العربية هو تحقيق مثل عزيز علي القومية ، فان النتيجة التي لابد منها ستكون اخضاع اهدافه القوميــة الى •••••• ( حبه للكفاءة ) ، والى الصراعات الشخصية (٣٣) • ونحن لذلك السبب ميالون للاعتقاد انه لابد ان تكون هناك اسباب اكثر اهمية لمغادرته الحجاز •

ان اهداف الشريف حسين ، كما اوضحت في اعلانه بتاريخ ٢٦- حزيران عام ١٩١٦ ، الذي وجهه الى العرب ، لم تكن لتوضح تماما ، فيما اذا كان قد قصد ان يفصل الحجاز عن السلطنة العثمانية او ان يعلن استقلال جميع الاراضي العربية (٣٤) • وهكذا فقد اصبح هدف الثورة ـ بدون شــك ـ موضــع لنقاش بين الضباط في رابغ ، وقد كان هناك اختلاف في الرأي فيما اذا كـان على الشريف حسين ان يكتفي بتحرير الحجاز من الحكم التركي ، او ان يقوم فيما اذا تم تحرير الحجاز بالعمل لابعاد الاتراك من الاراضي العربية الاخرى • واخبرني عزيز علي انه لم يكن مدركا ، لاهداف الشريف حسين على الـرغم من ان انطونيوس يشير الى ان عزيز علي قد اخبر بصورة خاصة بمراسلات حسين مع مكماهون (٣٥) • وقد اوضح عزيز علي ايضا ، انه كان قد اخبر الشريف حسين انه لايجد الانفصال الكامل عن الامبراطورية العثمانية ، وان

(٣٣) كتب ستورز في مذكراته ان عزيز علي كان ينتقد اساليب الشريف حسين ولو انه كان مخلصا لشخصه وقد اخبر عزيز علي ستورز ان تعينـه كرئيس للاركان كان كلاما فارغا . انظر ستورز شرقيات ص ١٨٠ . انظر ايضا امين سعيد ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ . اذ يقول ان عزيز علي قد بملاحظات غير مستحسنة عن البريطانيين دفعت الاخرين الى ان يرجوا الشريف حسين ان ينهي خدماته .

(٣٤) اللحصول على نص الاعلان ، انظر اسعد داغر ، ثورة العــرب ، القاهـرة ١٩٥٦ ص ١٩٨ ـ ٢٠٣ •

(٣٥) انطونيوس ، ص ٢١٢ •

افكاره تقوم على ان على العرب ان يقتنعوا بوضع ذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية وان هذا الموقف كما يبدو ، كان متماشيا مع الافكار الفدرالية التي اعتنقها عزيز نلي في اسطنبول ، كما توضحت في منهاج العهد .

ووصلت الحالة الى نقطة حرجة ، حينما هيئت استعدادات حربية خلال شهر تشرين الاول عام ١٩١٦ لمهاجمة المدينة المنورة ، وهي مقر القوات العثمانية في الحجاز . فقد انقسم الضباط العرب في رابغ حول القضية [٣٦] . ذلك ان الذين عارضوا الانفصال عن الامبراطورية العثمانية . اوضحوا بصورة مباشرة الى عزيز علي انهم لايفضلون مهاجمة المدينة . وحيث ان عزيز علي قد لمس ان الشريف حسين كان يستهدف الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، فقد تعاطف عزيز علي مع هؤلاء الضباط ، وبحث معهم خطة تتعارض مع سياسة الشريف حسين المستهدفة للانفصال عن الامبراطورية وقد قرر عزيز علي هو وصحبه ، كما اخبرني ، انه حينما اصبحت مهاجمة المدينة شيئا اكيدا ، ان تتصل عصبة من ثلاثة ضباط بالقيادة العثمانية في المدينة المنورة ، وتقترح قيام تفاهم مع حاكمها . وعوضا « عن مهاجمة المدينة المنورة ، فسوف يتم الاقتراح على الحاكم مباشرة السماح لقوة مشتركة من الاتراك والعرب تتقدم نحو مكة تحت قيادته ، فتتولى السيطرة والقيادة العامة من الشريف حسين وتتفاوض من اجل أتفاقية سلمية مع الباب العالي العثماني ، على اسس الاستقلال الذاتي العربي ، وضمن اطار الخلافة العثمانية [٣٧] واعتزم

---

(٣٦) لقد شاعت الاحاديث عن محاولات صلح مع الاتراك ليس فقط بين العرب في رابغ ، بل بين اتباع فيصل وفي كل مكان . انظر ، تي . أي . لورنس ، تقريرعن عمليات فيصل ، النشرة العربية ١٨ تشرين الثاني ١٩١٦ ، المعاد طبعها في المراسلات السرية عن البلاد العربية ( لندن ١٩٣٩ ) ص ١٤ .

(٣٧) يعطي فائز غصين في مذكراته عن الثورة العربية ص ٢٣٩ بيانا مختصرا يشير فيه الى ان الشريف قد سمح في المحادثات السرية بين الضباط العرب في رابغ وبين المدينة المنورة ، والتي ادت الى مغادرة عزيز علي الحجاز .

عزيز علي ، ايضا اجراء محادثات مباشرة مع الالمان ومــع السلطات العثمنيــة في سوريا بهدف الوصول الى ترتيبات مثل هذه ، فيما يتعلق بالاراضي العربية الاخرى • وقد اوضح عزيز علي انه حينما لم يعد من الامكان ابقاء مثل هذه الافكار سرية لفترة ابعد ، وخصوصا ، الخطة المقترحة حول المدينة المنورة ، لان ضباط الجيش الذين كانوا الى جانب التعاون مع البريطانيين قد اوضحوا خطط عزيز علي ، وطبقا لرواية عزيز علي نفسه فأن الشــريف علي رجاه ان يوقف خطته في مهاجمة المدينة ، وهكذا فأن جهوده بالاتصال بالســلطات العثمانية قد فشــلت •

ولم يعد الحجاز بالنسبة لعزيز علي ، المكان الذي يســتطيع من خلالــه تنفيذ افكاره وبدأ يهيء نفسه للعودة للقاهرة • واستنادا ، على هذه الخلفية فان محادثاته مع رونالد ستورز ، السكرتير الشرقي للمقيم البريطاني فيالقاهرة والذي كان في زيارة لرابغ قبل فترة وجيزة من مغادرة عزيز علي ، تصــبح اكثر معنى • يذكر ستورز ان عزيز علي قد اخبره ( •••••• انه متأكد ان المدينة المنورة اذا ما سقطت فان الاخوان الشريفين سوف يتقدمون نحــو سوريا بعد تعاملهم مع الغادر ابن رشيد • ) واضاف ستورز ان عزيز علي سأله بصراحة فيما اذا كانت انكلترا ترغب بهذا أم لا ••• واوضح انه على الرغم من رغبته في ان يرى العرب يجتازون الازمه الحجازية ، فانه ليست لديه رغبة أي كانت ،: في ان يشترك معهم في حملة قد تكون بريطانيا ضدها ، ويمكن ان تضعهم بنتيجتها في مضاعفات غير مرغوبة • ولهذا السبب بالذات فأنه كان سينسحب لو نبه في وقته • وقد رجاني ان اخبره أي الوسائل افضل لأتباعها ، على ان يكون ذلك قبل الخامس عشر من شهر تشرين الثاني ، وفي رابغ [٣٨] •

وخلال ذلك ، سمع الشريف حسين بما يجري خلف الكواليس في رابغ ولابد انه كان غير راغب في الاحتفاظ بعزيز علي كقائد لقواته هناك ، وهكذا

---

(٣٨) ستورز ، شرقيات ، ص ١٨٠ .

فقد اعيد عزيز علي بسفينة حربية بريطانية الى مصر • لقد ترك عزيز علي الحجاز دون ان يحاول رؤية الشريف حسين في مكة ولكنه من الممكن ان يكون قد كتب له بعد وصوله القاهرة موضحا ، اسباب مغادرته (٣٩) •

ان انسحاب عزيز علي من الثورة ، وتركه لحركة كانت السبب في تثبيت سمعته ، قد باتت بداية لسلسلة من التراجعات التي لم يستطع الهروب منها • لقد اظهر عزيز علي اختلافاته الحادة ازاء السياسة البريطانية تجاه العرب ، واعلن عن رأيه بصراحة ، في تفضيله للتعاون مع الالمان وحلفائهم • لقد كان واحدا ، من الضباط العثمانيين الذين اعتقدوا بقابلية المانيا على كسب الحرب واعتقد ان تحلل الامبراطورية البريطانية سيؤدي الى تحرير مصر من الاحتلال البريطاني ، وعودتها الى حظيرة الدولة العثمانية • ويختلف عزيز علي بهـذا عن القوميين العرب الذين يمثلون المناطق الواقعة شرق مصر ، الذين رحبوا بالدعم البريطاني للثورة العربية ، املا بالحصول على الاستقلال ، كما كان متماشيا ، في نفس الخط مع موقف بقية القـوميين المصـريين الذين اعتبروا الثورة العربية كضربة ضد الوحدة العثمانية •

اعتقد عزيز علي ، ان مشاركته في الحـرب مع الجانب الالماني ربمـا تترك تأثيرا ، على الحكومة الالمانية ، يدفعها الى ممـارسـة الضـغط على السلطان من اجل اعادة تنظيم الامبراطورية على اسس غير مركزية وفق ما توضح في منهاج جمعية العهد ، لكي يتـم الاحتفـاظ بمصر ، والاراضي

---

(٣٩) وهناك رواية مختلفة لهذه القصة ، وهي تنفي ان يكون عـزيز علي قـد حاول تحقيق صلح مع الاتراك . انظر اسعد داغـر ، مذكـراتي ، ص ٨٩ــ٩٠ ان رواية اسعد داغر تحاول تصـوير عزيز علي على اعتبـار انه القومي العربي الغيور ، ولكن عزيز علي نفسه قد اخبرني بخطته الهادفة الى تحقيق صلح منفصل مع الاتراك ضد سياسة الملك حسين .

العربية الاخرى ضمن الوحدة العثمانية [40] .

وحاول عزيز علي ، بعد شهور قليلة من عودته للقاهرة ، الذهاب الى سويسرا مؤملا ، الهروب منها الى المانيا . فلم تكن الحياة في القاهرة، تحت وطأة الاحكام العرفية ، والرقابة مريحة لرجل تعود ان يعرب عن افكاره بصراحة . ان رجاءه الحصول على رخصة يترك بها مصر قد رفض . على ان عزيز علي ترك مصر . فقد سمح له ان يذهب الى اسبانيا وهي قطرا محايدا معزول عن اعداء الحلفاء . بأراض حليفة ، وهذا سيعني عمليا ، انه سيبقى في حالة نفي الى نهاية الحرب ،: وقد كان الامر كذلك على الرغم من محاولاته المتكررة للهرب الى المانيا .

حين وصل عزيز علي مدريد ، قدم خدماته الى المانيا من خلال السفارة الالمانية ولكنه لم يحصل على استجابه لعرضه . واقتنع ان صمت المانيا رغم محاولاته المتكررة ، كانت بسبب من انور باشا الذي كان قد اخبر الالمان ان عزيز علي لايمكن ان يكون مواليا ، مادام قد قاتل في الثورة العربية ضد تركيا .

وقبيل نهاية الحرب العالمية الاولى ، وعلى الرغم من ان تحطم الالمان بات واضحا ، فقد قام عزيز علي بأستعدادات للذهاب الى المانيا مباشرة وطبقا ، لما يقوله هو فأن دافع ذهابه كان رسالة سرية استلمها من المانيا فيها اعتذار لعدم قبول خدماته في وقت سابق . ان تحطم الالمان قد جاء ، على اية حال ، في وقت اسرع مما كان عزيز علي يعتقده . وحين سمع بأستسلام

---

(40) في مقابلة مع المؤلف ، قدم عزيز علي ادعاء غير واقعي : يتضمن انه قد وافق على الالتحاق بالبريطانيين الذين حاولوا استدراجه الى جانبهم ، وارادوا وضعه على رأس قوة الحملة في العراق او في اليمن ضد الاتراك . وكان البريطانيون ، كما ادعى عزيز علي راغبين في ان يقدموا له عرش العراق او اليمن بعد انتصارهم في الحرب . ولكنه كما ادعى لم يكن مهتما بالعرش . ولم يكن من المعتقدين ان بريطانيا تستطيع ان تربح الحرب . انظر ايضا ، الاهرام ، القاهرة ٢١ تموز ١٩٥٩ ، ص ٣ .

المانيا ، قال عزيز علي انه يشعر بيأس الى درجة انه حاول الانتحار • ولكنه قد ذهب الى المانيا ، على اية حال ، وبقي هناك حتى اعلن استقلال مصر من قبل البريطانيين في عام ١٩٢٢ ، فأعتقد ان القومية المصرية قد انتصرت في الاخير وتطلع ان يلعب دورا ، في حياة مصر الجديدة بعد الاستقلال (٤١) •

وقبل عودته الى القاهرة ، وصلت الانباء الى فـؤاد ، الذي كان قد اعلن توا ، ملكا ، على مصر في عام ١٩٢٢ ، ان عزيز علي كان على اتصال مع عباس حلمي ، الخديو المعزول ، والمطالب بالعرش المصري وسواء ، كانت هذه الاخبار صحيحة او لا ، فأن شكوك فؤاد حول اتصال عزيز علي بالخديو السابق ، قد حطمت فرصه في المساهمة بخدمة بلاده • وبعد اقامة قصيرة في القاهرة ، وجد عزيز علي نفسه خلالها في جوف المنافسة السياسية العنيفة ، فخرج يبحث عن عمل في امكنة اخرى • في عام ١٩٢٣ زار سوريا والعراق وايران • وبما ان سوريا كانت تحت السيطرة الفرنسية الكاملة فقد ركز عزيز علي اماله على العراق ، حيث وجد مضيفا ، يتمثل في رفيق سابق ومساعد له ايام اسطنبول ما قبل الحرب ، والذي اعتمد عليه في المساعدة •

كان من الممكن لعزيز علي ، ان يكون الشخص المناسب ، لاشغال منصب رئيس الاركان العامة ، في الجيش العراقي ، لو انه لم يكن قد غمر نفسه في القضايا السياسية • فهو منذ انسحابه من الثورة العربية في عام ١٩١٦ لم يكتف بعدم الاتفاق مع القوميين العرب الذين كانوا قد تعاونوا مع بريطانيا

---

(٤١) اشار عزيزعلي ، انه قد عاد الى القاهرة بدعوة من عضوين بارزين من اعضاء هذان العضوان كانا قد سمعا مصطفى كمال ( فيما بعد مصطفى اتاتورك ) الذي كان يعرف عزيز علي خلال الحرب الليبية ، يمتدح وبشكل كبير الوفد المصري .
عزيز علي . وقد اقترح اسمه بأعتباره الضابط الذي يستطيع اعادة تنظيم الجيش المصري . انظر الاهرام ، القاهرة ٢١ تموز /١٩٥٩ ص ٣

العظمى ، فقط ، ولكنه ايضا ، اصبح الناقد الناطق للسياسة البريطانية ازاء العــــرب •

واعتبر الملك فيصل الاول ملك العراق ، الذي يدين بعرشه الى التأييـد البريطانيين ، أن وجود عزيز علي في بغداد قد يؤثر على الموازنة التي استطاع ان يوجدها بين المعارضة التي يقودها ياسين الهاشمي ، والعناصر المعتدلة ، المتألفة من اشخاص مثل جعفر العسكري ، وعلي جودت الايوبي ، ونـوري السعيد (٤٢) • وما كاد عزيز علي يصل بغداد ، حتى وجد نفسه محاطا بزعماء المعارضة ، على الرغم من انذار الحكومة له في ان يبقى بعيدا ، عن التدخل في السياسة •

ولم يثمر الحديث عن احتمال الاشتغال لدى الحكومة العراقية عن أي عرض محدد ، على الرغم من ان العديد من اصدقاء عزيز علي العراقيين اشادوا بقابلياته ونزاهته بصورة كبيرة •

ذهب عزيز علي ليقابل السير هنري دوبس المعتمد البريطاني الســامي في بغداد ، فكانت له معه مقابلة عاصفة • فقد سأل دوبس عزيز علي بصورة مباشرة عن سبب مجيئه الى بغداد مــادام تركيا وليس عراقيــا او عربيــا ، وقد رد عزيز علي منكرا ، انه تركي ، لانه شركسي بالاصل ومسلم في الدين ، وبأعتباره مسلما ، فقد قال عزيز علي انــه يمثل كل المسلمين في كل مكان ، وانه سوف لن يكون مثل البريطانيين الذين يستغلون الاخرين (٤٣) •

---

(٤٢) كان جعفر العسكري في تلك الفترة رئيسا الوزارة ، وعلي جودت الايوبي وزيراً للداخلية ونوري السعيد وزيراً للدفاع •

(٤٣) وطبقا لما اورده عزيز علي فأن دوبس قد اقتــرح ان يهيء لعــزيز علـي منصب في شركة النفط العراقية ، لكن عزيز علي لم يكـن راغبا فيـه ( مقابلة المؤلف مع عزيز علي ) • وللاطلاع على صيغة مختلفة قليلا عن مقابلة عزيز ، مع هنري دوبس ، انظر الاهرام ، القاهـرة ٢١ تمـوز ١٩٥٩ ، ٣ •

ومن بغداد ، ذهب عزيز علي الى طهران حيث قابل رضا خان ، الشاه المقبل لايران والذي قدم اليه خدماته في اعادة تنظيم الجيش الايراني ولكنه لم يجد هناك املا ، في الحصول على مثل هذا العمل • وعاد عزيز علي الى القاهرة خالي الوفاض •

وبما انه قد قوبل ببرود ، وخابت اماله في الحصول على استجابة للعروض التي قدمها للاقطار التي زارها ، والتي كانت في حاجة حقيقية لقدراته العسكرية وحذقه فقد انسحب من الحياة العامة للسنوات الثلاث او الاربع القادمة •

كانت مصادفة سعيدة ، انه قبل فترة وجيزة من زيارته للعراق وايران ، ان قابل في القاهرة فتاة اميركية اسمها فرانسيس دريك ، كانت في زيارة لمصر واقطار الشرق الاوسط • لقد نزلت مس دريك في القاهرة في نفس العمارة التي يقطنها عزيز علي ، ولم يستغرق وقتا طويلا لمصاحبة الفتاة الاميركية الطويلة التي تم زواجه منها اخيرا • فبعد مغادرته لبغداد ، قابل عزيز علي مسس دريك في ايران ، حيث كانت تزور البلاد ، فعادا معا ، الى القاهرة عن طريق بغداد • وفي القاهرة قرر عزيز علي ان يتزوج مسس دريك ، على الرغم من موارده المحدودة وعاش حياة هادئة طيلة الفترة التي فصلت بين الحربين العالميتين •لقد اثمر الزواج ولدا ، واحدا ، اسمه عمر ، واتنهت العلاقة بالانفصال قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وبموافقة عزيز علي نفسه ، فقد صاحبت الام الاميركية ابنها متجهة الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث تخرج الابن من الكلية والتحق بأحد المعاهد التربوية ، مفضلا ، بموافقة والده ، ان يصبح مواطنا ، امريكيا •

وحتى قبل مغادرة عائلته ، لم يكن عزيز علي قد فقد اماله كلية في ان يلعب دورا في الحياة العامة ، فقد اتصل بسعد زغلول باشا زعيم حزب الوفد ، بناء على اقتراح احد اصدقاء زغلول عام ١٩٢٧ • ويبدو ان عزيز علي قد

احدث تأثيرا ، قويا ، على سعد زغلول الذي ربمــا كان قد وعد عزيز علي بمنصب مهم في حزب الوفد المصري [٤٤] • غير ان موت سعد زغلول الفجائي الذي ترك قيادة الحزب في ايد لم تكن راغبــة في ان تأخــذ عزيز علي الى دوائرها ، دفع به الى ان ينشد المساعدة من السياسيين الاخرين من اصــدقاء القصر الملكي • اعطي عزيز علي فرصة كان من الممكن ان ترفعه الى اعلــى مقام في دوائر القصر ، لو كان يمتلك الاخلاق والصفات التي تتصف بهــا حاشية القصر • فيما انه كان مؤمنا ، بان النظام العسكري هو فضيلة لا يمكن ان تتقدم عليها المناورات السياسية ، فأنه قد وقع في صراع مع فاروق ، ملك مصر المقبل ، فبعد فترة من الخدمة في مدرسة لتدريس الشرطة ، اختير عزيز علي كمرافق لفاروق الذي كان ولي عهد العرش المصري ، والذي كان قــد ارسل الى انجلترا للدراسة في عام ١٩٣٥ • ويبدو ان عزيز علي قد فرض على فاروق ، الذي كان مدللا ، نظاما عسكريا شديدا لم يحببه الى ولي العهد ، كما ادى الى عودة عزيز علي الفجائية بعد فترة وجيزة من تعيينه ، وتــم استبداله بمرافق اخــر •

لقد بات واضحا ، ان عزيز علي ، وهو الناقد الناطق ، لاي شيء يعتقده خطأ ، لن يصلح في دوائر القصر •

اعطت الحرب العالمية الثانية ، عزيز علي اخيرا ، الفرصة لان يحتــل المركز الذي طالما اشتاق اليه ، كرئيس للاركان العامة ، وان يزاول قيــادة الجيش المصري •

في عام ١٩٣٩ ، اصبح علي ماهر ، رجل مصر القوي ، بعد وفاة الملك فؤاد رئيسا للوزراء وقد ادخل علي ماهر ، في وزارته وبموافقة ضمنية من

---

(٤٤) ادعى عزيز علي لكاتب السطور ، ان سعداً كان يريد تعيينه كنائب لــه في حــزب الــوفــد

الملك فاروق ، عناصر معارضة للمصالح البريطانية [٤٥] كما دخل ، كما نعرف ، في تعامل سري مع قوات المحور •

وكان عزيز علي ، المعروف بميوله المتعاطفة مع الالمان ، قد عين رئيسا للاركان العامة ولم يخف مشاعره المعادية للبريطانيين [٤٦] •

لقد كان من الممكن لعزيز علي ان يحصل على الفرصة لحمل الجيش المصري على مساعدة المحور في السيطرة على الوطن العربي ، لو ان قواهم نجحت في اجبار البريطانيين على ترك مصر خلال الايام الاولى من الحرب غير ان السلطات البريطانية في مصر ، وقد ادركت خطورة الوضع الداخلي ، عملت بسرعة على تحشيد العناصر الموالية للبريطانيين ، من اجل اجبار علي ماهر باشا على الاستقالة في حزيران ١٩٤٠ • وقد اقال حسن صبري ، رئيس الحكومة المؤلفة من اعضاء اصدقاء للبريطانيين ، عزيز علي من منصبه ، وحدد من تحركات العناصر الموالية للمحور •

فقد عزيز علي الاستقرار في هذه الظروف الى حد كبير ، واخذ يشجع الفعاليات المعارضة للحكومة •

وكانت فعاليات الضباط الاحرار خلال الحرب ، والتي بلغت قمتها في ثورة ١٩٥٣ ، معروفة الى عزيز علي الذي شجع الروح الثورية للضباط واصبح « اباهم الروحي » •

لقد وضعت الخطط للضباط الاحرار لان يقوموا بثورة ضد البريطانيين في مصر ، مشابهة للانتفاضة العراقية لعام ١٩٤١ • كما وافق عزيز علي ان

---

(٤٥) من البارزين بين هؤلاء ، كان صالح حرب باشا وزير الحرب ، وعبد الرحمن باشا • ( انظر مذكرات هيكل باشا جـ ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨١ •

(٤٦) الفيلد مارشال اللورد ولسن ، ثمانية اعوام فيما وراء البحار ١٩٣٩ ـ ١٩٤٧ ( لندن ١٩٤٨ ) ص ٢٤ ـ ٥٤ • انظر ايضا هيكل ، المصدر السابق • ص ١٨٠ •

يتصل بالالمان في ليبيا وان يزحف معهم نحو مصر • على انه لم يكن من المعقول ان يكون الالمان قادرين على ارسال طيارة تحط في مصر ، وتلتقط عزيز علي ، كما كان قد اشير الى ذلك كثيرا في المصادر المصرية ، لكنه من المؤكد ان الضباط الاحرار كانوا قادرين على تجهيز طائرة ستمكن عزيز علي من الهرب الى الخطوط االالمانية ، غير انه يبدو يقينا ان الحظ كان ضد الجنرال عزيز علي ، فلقد اصطدمت الطائرة بعمود عند اقلاعها وتحطمت ، واستطاع ركاب الطائرة الخلاص بأرواحهم بأعجوبة • وتم توقيفهم وسجنهم بتهمة التآمر ضد سلامة الدولة (٤٧) •

استمر عزيز علي في اعطاء النصيحة للضباط الاحرار ، وقبل فترة وجيزة من قيامهم بأنتفاضتهم وحينما احتاجت فعالياتهم الى رئيس يعطيهم التعليمات فقد دعي عزيز علي ليملاء الدور • ولكنه وكما اوضح ذلك احد الضباط الاحرار ، فأنه اعتذر بدعوى تقدمه في السن واعتلال صحته ، مفضلا ان يبقى الأب الروحي لحركتهم ومن المحتمل ان عزيز علي ما كان لينكمش عن قيادة حركة كانت ستمكنه من ان يلعب الدور الذي مال اليه اكثر من اي شيء اخر في حياته ، ولكنه يبدو ان الضباط الاحرار لم يكونوا متحمسين كثيرا للاستفادة من خدماته ، لانهم فضلوا الاستفادة من خدمات رجل سيكون مجرد رمز لحركتهم • وليس من حاجة الى القول ان عزيز علي لم يكن ليستطيع ان يقوم بدور الرمز فقط • وكانوا هم غير راغبين في وضع كل شيء في ايديه ، وعلى كل حال ، فان الضباط الاحرار استمروا ينشدون نصيحة عزيز علي ، وقدموا كثيرا من دلائل العرفان للتأييد الذي تلقته حركتهم منه •

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٣٨ . لقد حاول عزيز علي الهروب من مصر في الخامس عشر من شهر مايس ١٩٤١ ، ولكن اصطدام طائرته قد ادى الى توقيفه وسجنه . ثم اطلق سراحه في الثاني من شهر تشرين الثاني ١٩٤٤ . انظر هيكل ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ ــ ٢١٥ .

لقد شاهد عزيز علي ، بعد بلوغه اخر العمر ، على الاقل ، الثــورة التي حلم بها دائما تتحقق بأياد اخرى(٤٨) •

امتلك عزيز علي ، منذ حداثة سنه الشجاعة والاستقامة والقوة العضلية والذكاء الحاد ، ممزوجة بالرغبة المتلهفة للتعلم ، وهي صفات تؤهل أي شاب متطلع لان يشق طريقه الى الاعلى في المجتمع •لقد نشأ في مصر ، في اواخر عهد كرومر ، حينما وصلت المشاعر المعادية للبريطانيين اعلى درجاتها • كانت طفولة عزيز علي مصاغة في جو ممزوج بالعداء لسيطرة اوربا السياسية • واثار القوميون المصريون ، في معاداتهم للاحتلال البريطاني ، الرغبة بأدراك اهمية الارتباط بالخلافة العثمانية • لقد كانت القومية المصرية ، ممتزجة بالحماس الاسلامي التقليــدي • واستلم عزيز علي في هذا الجـو المفعم بالعاطفيــة ، تعليمه الاولي وحددت العوامل العاطفية قراره • فبعد التخرج من الثانوية تابع دراسته في اسطنبول بدلا من باريس او لندن • ولو لم يكن مشبعا بهــذه الميول المعادية للنفوذ الاوربي ، لكان قد حصل على تعليم افضل في اوربــا ومادام تابع الدراســة في اسطنبول ، فانه كان يتعذر على التعليم العثماني ان يحسن كثيرا من تحصيله الــذي كان قد تلقاه في القاهرة ، عدا تزويده ــ من المحتمل ــ بتدريب عسكري مهني ، وحتى في حقل اختصاصه فان عزيز علي تقبل ، بدون انتقاد ، الاعجاب العثماني بالنظام العسكري الالماني واساليب الحرب الالمانيــة •

كان لاسطنبول ، في اواخر العهد الحميدي تأثيرا اخر في مستقبل عزيز علي • فحينما كان لا يزال طالبا في الكلية العسكرية ، ارتبط بجماعة من ضباط الجيش الذين شعروا ، بحق انه لواجب وطني المشاركة بدور فعال في السياسة من اجل انهاء الاستبداد الحميدي ، واعادة الحياة الدستورية •

(٤٨) خدم عزيز علي لشهور قليلة كسفير لمصر في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٤ •

لقد نجحت الفعاليات السياسية لضباط الجيش في الاطاحة بالنظام الحميدي ، وادت في النهاية الى تحويل السلطة من ايدي المدنيين الى ايدي العسكريين ، والى صعود نجم بعض اصدقاء عزيز علي ومشاركيه الى المناصب السياسية العليا ، بينما اضطر الاخرون امثال عزيز علي ، الذين لايستطيعون اخضاع تنظيمهم العسكري الدقيق الى القوى السياسية ، الى البقاء في مناصب اقل اهمية • ولم يكن من غير الطبيعي ان تكون الوضعية على هذه الحالة • ذلك ان السياسة تتطلب مواصفات لايستطيع العسكريون بأعتبارهم جنودا نظاميين ان يتسامحوا اذا ما ارادوا الابقاء على اسلوبهم العسكري •

ان عزيز علي ، بأعتباره ضابطا عسكريا جيدا لم يستطع ان يتسامح مع المستويات المقبولة لدى السياسيين • لقد توقع ان يحقق ، نجاحا سياسيا ، معتمدا على حقيقة كونه قد نجح في مسلكه العسكري • لقد نظر بحسد الى انور باشا الذي قد لا يكون قد حقق مستوى عاليا ، مساويا ، مستواه في المسلك العسكري ولكنه توصل الى مكانة سياسية عالية لانه اثبت انه قادر على التلاعب بالقوى السياسية لصالحه وهو امر لم يكن عزيزعلي بقادر على القيام به • ان افتقار عزيز علي الى الفطنة السياسية قد استغل بصورة كاملة من الجماعات المعارضة ، وخصوصا ، القادة العرب ، لمنفعتهم • وهكذا فأن اصطدامه مع القادة الاتراك ، والذي بدأ بصراع مع انور ، قد استغل كذريعة في شجب سياسة الحكومة ازاء العناصر غير التركية في الامبراطورية العثمانية ، ووضع عزيز علي في موضع زائف ، بأعتباره زعيما ، للقوميات الناهضة ، ضد الوحدة العثمانية •

وهكذا فعلى الرغم من كون عزيز علي في قرارة نفسه ، من المؤمنين بصدق بالوحدة العثمانية ، فانه قد وجد نفسه على غير ارادة منه مشتركا ، في الفعاليات المناهضة للحكومة ، والمستهدفة لانهاء الوحدة العثمانية • وقد اثار

هذا الامر شكوك اصحابه في المناصب الحكومية العليا ، ولكنه لم يكن بقادر على ان يخلص نفسه من هذه الوضعية •

ان الامتحان الصعب الذي اثبت تمتع عزيز علي بالكرامة والايمان العميق بافكاره ، وكانت الفرصة التي اعطيت له في الاشتراك في الثورة العربية عام ١٩٦٦ ، فلو انه كان سياسيا « انتهازيا » مستهدفا الحصول على القوة والمكانة لكان في استطاعته الحصول على مناصب اعلى من تلك التي اعطيت لجعفر العسكري ونوري السعيد ، اللذين كانا في تلك الفترة اقل منه مرتبة واللذين ارتفعا اخيرا الى مراتب الوزراء • لقد ذهب عزيز علي الى الحجاز ، كما ذكر ، ولم يكن هدفه ان يحطم الوحدة العثمانية ، على الرغم من انه امن بأخلاص ان العرب يجب ان ينالوا الحكم الذاتي ضمن الكيان العثماني • وحين اكتشف ــ لدهشته ــ ان الشريف حسين قد استهدف الانفصال التام عن الوحدة العثمانية وهو امر لم يكن واضحا في التصريحات الرسمية ، فقد نشد عزيز علي ، التعاون الالماني ، املا الحفاظ على الوحدة العثمانية ، ومعتقدا في نفس الوقت ، ان تفاهما بين الترك والعرب سيتمخض عن الانتصار الالماني على بريطانيا • وهكذا فقد ظهر عزيز علي ، كرجل مثالي رفض السلطة في صالح حكم كان تطبيقه موضح تساؤل ، وهو التفكير الذي سيطر عليه منذ ايام اسطنبول ، بدلا من ان يكون رجل الدولة العملي الذي يستطيب لعبة القوى السياسية •

لقد كانت هناك ، في الحقيقة عوامل عاطفية معينة ، يمكن ان تكون قد لعبت دورا في اتخاذ قراره الخطير بنشدان التعاون الالماني بدلا من التعاون مع البريطانيين ، منها اعجابه بالنظام العسكري الالماني ، وكرهه لبريطانيا لاحتلالها لمصر • ويبدو ان القرار الذي اتخذه بهذا الشأن ما كان من الممكن التراجع عنه • لقد اثير نقاش يتعلق في ان انفصال عزيز علي عن الشريف حسين انه كان ــ جزئيا على الاقل ــ يعود لاسباب شخصية اكثر منها سياسية ، تعود الى عدم

خضوع عزيز علي الى رؤسائه ، ولو كان لهذا العامل الشخصي أي تأثير مهم على قرار عزيز علي ، فأن ذلك يجب ان يعكس قوة اخلاقيته وشخصيته .

لم يظهر عزيز علي اية مرونة ، او أي استعداد لان يغير فكره حينما تثبت الحوادث خطل وجهات نظره . لقد ابدى عزيز علي بأستمرار اعجابه بالنظام العسكري الالماني خلال الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، بدون ان تكون لديه اية فكرة عن شكل النظام العالمي الذي سيبرز نتيجة للانتصار الالماني . اعتقد عزيز علي ، انه اذا ما انتصرت المانيا ، فأنه سيكون قادرا على تحقيق احلامه دون اعتبار لمطابقتها للواقع . لقد تملكه التغيير الاجتماعي عن طريق الحرب او الثورة وهذا تملك عقله ، لانه اعتقد انه لايمكن تحقيق التقدم الا عن طريق اسقاط الانظمة التقليدية .

هذه الافكار ، على الرغم من كونها مثالية في اساسها ، اعطت الانطباع بأنه رفيق سفر ، او مغامر في طلب السلطة . وقد ثبط هذا الانطباع ، ان لم يكن قد اخاف ، مواطنين عديدين كان من الممكن ان ينشدوا تعاونه في الحياة العامة(٤٩) . غير ان عزيز علي كان في قرارة نفسه مثاليا رغب من خلال عواطفه الجياشة ، ان يعيد صياغة المجتمع عن طريق الوسائل العنيفة كالثورة ، واقامة الحرية ، والمساواة على المبادىء الانسانية .

وعلى كل حال ، فقد كرس عزيز علي ، وقتا اكبر الى مشكلة كيفية تحقيق افكاره المثالية مما انفقه على طبيعة وشكل هذه الافكار المثالية التي اراد ان يحققها .

---

(٤٩) انني استند على رواية السنهوري انه حين اقترح على النقراشي ، زعيم حزب السعديين ان ينشد تعاون عزيز علي ، في اقامة جمعية قومية ، فان النقراشي قد ثبط عزمه بأشارته ، كن حذرا ، ان هذا الرجـــل هـــو مغامـــر .

ان الاساليب والوسائل التي كان عزيز علي يستطيع عن طريقها تحقيق هدفه ، بدت بالنسبة له اكثر اهمية من الهدف نفسه . ذلك ان عزيز علي لم يكن بالضرورة مفكرا اجتماعيا ، ولكنه كان مخططا انجذب لبعض الافكار الخيالية التي اراد ان يحققها بوسائل ثورية . ونادرا ما يستطيع رجل له مثل هذا السجل المغامر الوصول الى مرتبة محترمة في الثمانين من عمره : ففي اكثر من مناسبة تخلص عزيز علي من نهاية مميتة بأعجوبة ، وفي مرات عديدة عانى السجن لفترات قصيرة او طويلة ، بضمنها النفي . ان افكاره الخيالية التي اراد تحقيقها من خلال الثورة بقيت سرابا ، لانه لم يكن لاي من مشاريعه التي وضعها ، اقل فرصة للنجاح . ان الثورة المصرية لعام ١٩٥٢ ، والتي استقى قادتها ايحاؤها من افكاره الثورية ، يمكن ان تعتبر تحقيقا لافكاره المثالية التي ظلت عزيزة عليه لفترة طويلة .